

الفسيفساء .. فن المَنمنمات

Mosaic...the art of miniatures

أ.د/ عبير قاسم

أستاذ الآثار اليونانية والرومانية - نائب رئيس جامعة برج العرب التكنولوجية

Prof. Abeer Qassem

Professor of Greek and Roman Archeology - Vice President of Borg El Arab

Technological University

abirkassem3012@gmail.com

الملخص:

الفسيفساء ... كلمة ارتبطت في الأذهان بكل ما هو صغير دقيق متراصٍ بجوار بعضه البعض. تعد الفنون مفتاح التعرف علي الحضارات القديمة وتعتبر الفسيفساء من أبرز أنواع الفنون التي استخدمت في الزخرفة. ويُعلمنا فن كل حضارة الكثير عن حقيقتها التاريخية وما وصلت إليه من تطور وازدهار . ولا تزال الفنون في الزمن المعاصر محوراً أساسياً عن ثقافة الحياة ومرآة الشعوب.

كان ينظر إلي الفسيفساء حتي أوائل القرن الماضي، علي أنها أحجارٍ صغيرة أو بقايا حصي يجده الإنسان في الطبيعة، فيرصه بجوار بعضه البعض لملئ الفراغات أو لتزيين الأسطح أو ربما لرصف الأرضيات. وكان يُنظر إليها علي أنها منمنمات تتيح لمن يستخدمها أن يصنع بها لوحات فسيفسائية من مكعبات أو حصي صغيرة. وكان يتم استخدامها في تبليط الأرضيات وتزيين الحوائط عن طريق تثبيتها بالمونة فوق أسطح خشنة أو ناعمة. وقد يستخدم فيها مواد مثل الحصي أو الحجارة. وأحياناً يستعمل بها الزجاج والمعادن والفخار وبقايا قطع الرخام ...

وعُرفت الفسيفساء منذ العصور القديمة وتنوعت طرق تنفيذها، والأغراض التي صنعت من أجلها. وتنوعت أساليب وموضوعات الفسيفساء ما بين هندسية ونباتية وبشرية وأسطورية وغيرها. وكانت تعبر عن حضارة وحياة وتقاليدها كل شعب من خلال ما تعكسه من موضوعات وأفكار ومناظر.

ولعبت الألوان المستخدمة في لوحات الفسيفساء دوراً بارزاً في إضفاء الجمال والقيمة علي العمل. فمع تطور هذا الفن، أصبح الفنان يميل في العصر الحديث الي استخدام الألوان النارية من خامة الأزمالتني كاللون الأحمر والبرتقالي والأصفر ..

وأكثر الحضارات القديمة التي استخدمت الفسيفساء كانت حضارة الإغريق اللذين زينوا أرضيات المباني العامة والخاصة بلوحات الفسيفساء. وتأثر الرومان بذلك واتبعوا نفس النهج الفني للإغريق ولكن علي نطاقٍ أوسع سواء في الطرق التنفيذية أو في الموضوعات مع إضفاء بعض التجديدات.

الكلمات المفتاحية:

فسيفساء, طرز, فن المَنمنمات

Abstract:

Mosaic...a word that is associated in people's minds with everything that is small, precise, and stacked next to each other.

The arts are the key to learning about ancient civilizations, and mosaics are considered one of the most prominent types of arts used in decoration. The art of each civilization teaches us a lot

about its historical era and the development and prosperity it has achieved. In contemporary times, the arts are still an essential focus of the culture of life and the mirror of peoples.

Until the beginning of the last century, mosaics were viewed as small stones or the remains of pebbles that people find in nature, and stack them next to each other to fill spaces, decorate surfaces, or perhaps pave floors. They were seen as miniatures that allowed those who used them to create mosaic paintings from cubes or small pebbles. It was used in tiling floors and decorating walls by attaching it with mortar to rough or smooth surfaces. Materials such as pebbles or stones may be used. Sometimes glass, metal, pottery, and the remains of marble pieces are used...

Mosaics have been known since ancient times, and the methods for their implementation and the purposes for which they were made varied. The mosaic styles and themes varied between geometric, botanical, human, mythological, and others. It expressed the civilization, life and traditions of every people through the themes, ideas and scenery it reflected.

The colors used in the mosaic paintings played a prominent role in adding beauty and value to the work. With the development of this art, the artist has tended in the modern era to use fiery colors made of osmalt, such as red, orange, and yellow.

The most ancient civilization that used mosaics was the civilization of the Greeks, who decorated the floors of public and private buildings with mosaic panels. The Romans were influenced by this and followed the same artistic approach as the Greeks, but on a larger scale, whether in operational methods or in topics, while adding some innovations.

Keywords:

Mosaic, embroidery, miniature art

تعريف كلمة فسيفساء :

هي كلمة عربية ترجع في أصولها الى الكلمة الإغريقية (*Psephos*) ومعناها قطع صغيرة من الحجر أو الحصى. أما كلمة موزايك ، فتشير العديد من المصادر القديمة إلي كونها اشتقت من كلمة موزيس (*Muses*) والتي كانت تمثل في الحضارة الإغريقية ربات الفنون. وانتشرت أيضاً كلمة *tessera* للإشارة إلي مكعبات الرخام الصغيرة التي تستخدم في عمل لوحات الفسيفساء.

تاريخ الفسيفساء :

تعد الحضارة السومرية من أقدم الحضارات التي ارتبطت بظهور الفسيفساء، وكانت أول من استخدم الطوب والزجاج بأحجام صغيرة في تزيين حوائط أبنيتهم بأشكال هندسية. وينسب لهم الفضل في تطوير هذا الفن.

ويُعد معبد الوركاء بمدينة بابل بالعراق والذي يؤرخ بالألف الرابع قبل الميلاد ، من أقدم المنشآت المُنفذة بتلك الطريقة والتي تعد بداية فن الفسيفساء.



معبد الوركاء

ومن الأمثلة أيضاً التي مهدت الطريق لظهور هذا الفن في بلاد ما بين النهرين؛ كانت أعمدة زخرفها السومريون أنفسهم بطراز اشتهر في التاريخ بأنه شبيه الفسيفساء. وعثر علي هذه الأعمدة بمدينة أوروک في مطلع القرن الثلاثين ق.م، هذا بالإضافة إلي المناظر المصورة علي بوابة عشتار في مدينة بابل.



أعمدة مدينة أوروک



بوابة عشتار

أما بالنسبة إلي الحضارة الإغريقية ، فقد استخدمت في القرن 5 ق.م فسيفساء عبارة عن أرضيات من الحصي ذات أشكال هندسية بسيطةً بألوان فاتحة، ومع نهاية القرن 4 ق.م استخدم الإغريق ألواناً وشرائح من الطين والرصاص في تطعيم

الفسيفساء لتحديد الخطوط العريضة للمشاهد المصورة. وفي القرن 3 ق.م أخذت الفسيفساء شكلاً فنياً واضحاً وازدادت اللوحات الفسيفسائية الإغريقية شهرة.

ثم ازدهرت الفسيفساء في العصر الروماني وانتشرت بشكل كبير ولم تتوقف حدودها داخل روما أو إيطاليا فقط ، بل امتدت إلى ما وراء البحر المتوسط ، فوصلت إلى شمال إفريقيا ومصر وكذلك شرق البحر المتوسط في بلاد الشام ووصل ازدهارها غرباً حتى هيسبانا (أسبانيا والبرتغال).

طريقة إعداد أرضية الفسيفساء:

اعتمدت الفسيفساء على رص الحصى متعدد الألوان ، وكذلك على قطع الأحجار الصغيرة بجوار بعضها البعض بشكل عشوائي أو زخرفي. وطبقاً للمهندس المعماري الروماني فيتروفيوس، كان يتم إعداد أرضية الفسيفساء عن طريق تسوية الأرضية وتجفيفها. ثم وضع طبقة من الحصى أو الدبش، يليها طبقة ذات سمك 25 سم من الأحجار المفتتة ، ثم طبقة مسحوق التراكوتا مع الجص. وتأتي بعد ذلك مرحلة الخطوط التحديدية للمشهد لتثبت عليه القطع.



طرز الفسيفساء :

تعددت طرز الفسيفساء الإغريقية ، فكان منها طريقة sectile وكانت تستخدم قطع الرخام مختلفة الأحجام لتكسية الأسطح. كما استخدمت فيها أيضاً شرائح مرمرية مثبتة في المونة.



الطرز الثاني كان signinum وتعد من أقدم الطرق التنفيذية في الفسيفساء. وكانت تستخدم الحصى غير المنتظمة لعمل لوحة فسيفساء بأشكال مختلفة واللوان متعددة.



الطريقة الثالثة هي طريقة tessellatum وفيها تم الاستغناء عن الحصى واستخدام بدلاً منه قطع حجرية صغيرة من المرمر مع قطع التراكوتا والزجاج.



الطريقة الرابعة vermiculatum واستخدام فيها الفنان قطع فسيفساء متناهية الصغر يبلغ طول ضلعها من 1 مم. إلى 4 مم. وتحولت لوحة الفسيفساء إلى لوحة تكاد تكون مرسومة.



موضوعات الفسيفساء :

انقسمت موضوعات الفسيفساء خاصة في العصر الروماني إلى عدة أنواع رئيسية:

أولاً: الموضوعات الأسطورية والتي صورت الآلهة والحيوانات والطيور والمخلوقات الخيالية ومن أبرزها تصوير الكنتاوروس والجريفون والأشخاص المجنحة. وانتشرت هذه الموضوعات حول حوض البحر المتوسط في العالم الهلينيستي ومن بعده الروماني. ومن أبرز تلك الأعمال فسيفساء البطل أورفيوس والتي عثر عليها في العالم الهلينيستي والروماني. .



لقد شكلت أسطورة البطل أورفيوس موضوعاً محبباً لدى فناني الفسيفساء ، وكانت تعد عنصراً مثيراً لدى فناني العصور الكلاسيكية الاغريقية والرومانية. فكان مشهد أورفيوس وهو يعزف الموسيقى وحوله الحيوانات يشكل تحدياً للفنانين لتجسيد تأثيره المذهل علي الحيوانات.

وقد عثر علي هذه اللوحة في مدينة شها (فيليبوبوليس) بمحافظة السويداء بسوريا. وهي مدينة التي أقامها الامبراطور فيليب العربي واهتم بها لتنافس روما.

ولعل لوحة أورفيوس بشها هي الأجل من بين جميع اللوحات التي جسدت هذه الاسطورة في العالم الهلينيستي بل والروماني. ونفذت اللوحة بطريقة opus vermiculatum واستخدمت فيها ألواناً شتي منها النارية وغير النارية ، مما أضفي علي اللوحة جمالاً فوق جمالها.

وكانت فسيفساء أورفيوس وهو يعزف علي القيثارة للحيوانات من أكثر القطع انتشاراً في مختلف الأنحاء وكلها انصبت حول سحر عزفه وتأثيره علي الحيوانات.



ثانياً : الموضوعات المسرحية : وكانت تعكس المسرح الإغريقي سواء مناظر الممثلين بملابسهم المسرحية، أو تصوير الأقتعة. وكان تصوير الإله ديونيسوس أو أتباعه من أشهر ما ميز تلك اللوحات. ومن أشهر الأعمال لوحة تصور أقتعة مسرحية وسط مجموعة من الفواكه وثمار العنب وأوراقه بالإضافة إلى فواكه أخرى. وقد عثر عليها في منزل فاون في مدينة بومبي من القرن الأول ق.م. وتعكس الأقتعة التراجيدية. وقد اتضحت فيها براعة الفنان في اختيار الألوان وإيصال الاحساس.

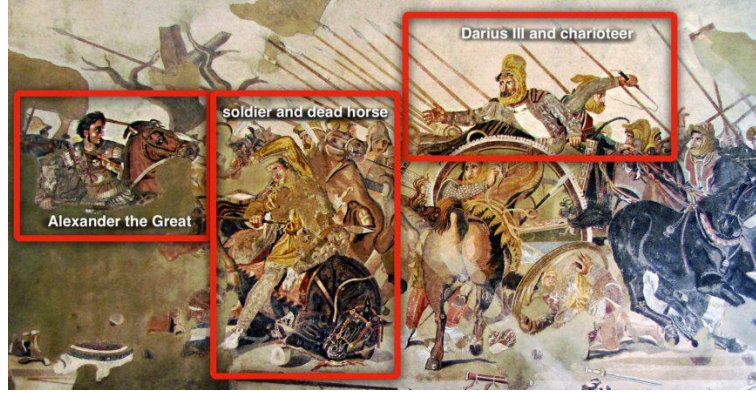


ثالثاً : الموضوعات السياسية ولعل أشهرها علي الاطلاق لوحة الإسكندر الأكبر. وكان الهدف من تلك اللوحات بصفة عامة الدعاية السياسية لشخصيات حقيقية سواء كانت شخصيات سياسية مثلما الأمر في فسيفساء الاسكندر الأكبر، أو شخصيات عامة مثل الصور الشخصية في فسيفساء العصر الفلاني.

فبالنسبة إلي فسيفساء الإسكندر الأكبر، فقد عثر عليها في أرضية حجرة exedra بفيللا فاون بإيطاليا. وهي لوحة فريدة تصور معركة الإسكندر مع الملك الفارسي داريوس. وتعتبر من الأمثلة القليلة على نوعية الموضوعات السياسية الدعائية.



نفذت اللوحة بطريقة vermiculatum حيث استخدم بها قطع فسيفساء متناهية الصغر، وفاق عددها مليون ونصف المليون قطعة. وتمثل اللوحة حدثاً تاريخياً مميزاً لإحدى أهم لحظات المعركة بين الملك داريوس والإسكندر الأكبر في لحظة تقهقر الإسكندر ورفاقه أمام هجوم داريوس وقواته.



وعلى الرغم من انتصار الإسكندر تاريخياً في تلك المعركة، إلا أن الفنان أراد تصوير اللحظة التي يتقهقر فيها الإسكندر لإضفاء لمسة كبرياء علي الملك المنهزم وكأنه بهذا يؤكد قوة ودهاء الإسكندر الذي انتصر علي ملك قوي هو ملك الفرس. وقد ساعد صغر حجم الفسيفساء الفنان على إبراز تدرج الألوان وتحقيق العمق في المنظور. كما حرص الفنان على الاهتمام باختلاف الملابس والتسليح وأسنة الرماح. واهتم اهتماماً بالغاً بالخيل المصورة في ساحة القتال فتحولت بدورها إلي أحد أهم أبطال المشهد القوي.

رابعاً: موضوعات تصوير الطبيعة، وفيها انتشر تصوير المناظر الطبيعية. بعضها كان حقيقياً و يرمز إلي أماكن بعينها مثل فسيفساء باليسترينا.

وأخري كانت تصور عناصر الطبيعة الساكنة من كائنات بحرية وبواقي طعام وطيور وغيره.

وقد لاقت النوعية انتشاراً واسعاً بجميع أنحاء العالم الهلينستي والروماني.

فبالنسبة إلي لوحة باليسترينا *Palestrina*، فقد عثر عليها بالقرب من روما. وتتميز اللوحة بالضخامة إذ يبلغ طولها 5,25 متراً وعرضها 6,65 متراً. وكانت تزين أرضية قاعة بها حنية بالقرب من معبد الالهة فورتونا في مدينة براينستي بإيطاليا. ونفذت اللوحة بطريقة *vermiculatum*. حيث ابدع الفنان في استخدام قطع متناهية الصغر.

ووفقاً للمؤرخ الروماني بلينيوس، فقد شاعت هذه الطريقة في روما في عصر سولا أي عام 80 ق.م. وذكّر أن سولا نفسه قد أشرف عليها علي الرغم من أن هذه الطريقة كانت قد استخدمت في أمثلة سابقة في مدينة بومبي.



تمثل اللوحة دراسة طبوغرافية لنهر النيل من منابعه في الحبشة إلى مصبه في الإسكندرية عند كانوب ، مع تصوير الفنان للخصائص الطبوغرافية للأماكن التي يمر بها النيل في مصر .
ويشير ديودور الصقلي إلى أن الفنان الإسكندري ديمتريوس صانع اللوحة قد هاجر إلى روما واستقر بها حيث حظى هناك بشهرة فنية كبيرة .



وصور في أعلى اللوحة البيئة الخاصة بمراتب النيل في الحبشة. كما صورت جبال الحبشة يعتليها صيادون بالحراب والأقواس لصيد الحيوانات الضارية بعضها حقيقي والبعض الآخر خيالي وكتبت أسماء هذه الحيوانات باللغة اليونانية. كما صور الفنان أيضاً الجزر التي تعترض مجرى النهر والصيادون ذوى البشرة الداكنة وهم بصطادون الحيوانات المفترسة. أيضاً اهتم الفنان بتصوير معابد مصرية يسبقها تماثيل على الطراز المصري اليوناني يقف أمامها الكهنة. وبرع الفنان في تنفيذ أشكال القوارب وأفراس النهر والتماسيح.

خامساً: موضوعات الحياة العامة والتي شملت بداخلها مناظر الصيد بأنواعه سواء الصيد البري أم البحري. ومن أبرز تلك المشاهد لوحة من فيلا أورفيوس بالقرب من مدينة لبة. واحتوت على مناظر شتى أهمها مشهد صيد بحري. بالإضافة إلي مشاهد الزراعة و تربية الحيوانات.



قطعة فسيفساء رومانية أخرى كانت تصور أنشطة مختلفة من الحياة اليومية مثل منظر الحرث ومشهد الماشية وهي تتجه نحو الحظيرة. ومنظر حصان يشرب من دلو و شخص يرتدي جلد ماعز يحاول إدخال طيور في الفخ. و خلفه منظر صيد حيث يظهر رجل يصوب رمح نحو خنزير برى ورجل يعزف ناي وآخر يحلب ماعز ورجل يتعقب طيور على الشجرة . وهي أرضية من منزل بتونس وتؤرخ الى القرن الثالث الميلادي ومحفوظة بمتحف باردو بتونس.



خاتمة :

إن هذه الجولة السريعة بين لوحات الفسيفساء سواء كانت علي حوائط أو أرضيات تجعل المشاهد يقدر قيمة هذا الفن الذي صنعه فنان متمكن من فنه. استخدم قطعاً من الحصي غير متشابه أو استخدم قطعاً أخرى متناهية الصغر ليصور مشاهد ذات طرز متعددة و موضوعات مختلفة . عكست تلك الأعمال الفكر الانساني في حوض البحر المتوسط و الحياة التي عاشها الفنان في تلك المناطق وتلك الأزمنة.

إن الفسيفساء لم تكن أبداً مجرد أحجارٍ متراسة وإنما هي نبض فنان دقيق رقيق الحس عكس بفنه و أحجاره مشاهداً أثرت فيه وأثر بها فترك بصمة مضيئة في عالم الفن اسمها فن الفسيفساء.